كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

OPEN ACCESS

علم السرديات وسرديات التراث
مراجعة كتاب: «أنماط الراوي ووظائفه في السرد العربي القديم»
الكاتب: علاء عبد المنعم إبراهيم

عماد عبد اللطيف
أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

Book review: "Narrative Patterns and Functions in Ancient Arabic Narration" by Alaa Abdelmonem Ibrahim

Emad Abdullatif
Associate Professor of Arabic Language, College of Art and Sciences, Arabic Language Department
emad.abdullatif@qu.edu.qa

المقدمة

ارتبط ظهور علم السرد في الربع الأول من القرن العشرين بدراسة نصوص التراث على نحو لافت. فقد كان صدور كتاب **مورفولوجيا الحكاية الشعبية** لـ «فيلاديمير بروب Vladimir Propp» عام 1928، تأسيسًا لعلم السرد الحديث من ناحية، وتدشينًا لعصر الاهتمام بالسرديات التراثية الشعبية والرسمية من ناحية أخرى. وقد تواصل هذا الارتباط بين علم السرد وسرديات التراث لدى الباحثين العرب منذ بدء اشتغالهم بعلم السرد (إبراهيم، نبيلة، 1974).. وكتاب «أنماط الراوي ووظائفه في السرد العربي القديم» حلقة من حلقات اهتمام باحثي السرد العرب بالتراث السردي؛ فهو يُعنى بدراسة مكوِّن سردي مهم هو (الراوي) في كتاب تراثي لم يحظ بدراسة شبيهة؛ هو كتاب «نسيم الصبا»، لمؤلفه ابن حبيب الحلبي، المتوفى عام 779 هـ.

يُعدُّ كتاب «أنماط الراوي» محطة مهمة في مسيرة معالجة مؤلِّفه، الدكتور علاء إبراهيم، لسرديات تراثية

للاقتباس: عبد اللطيف، عماد. «علم السرديات وسرديات التراث – مراجعة كتاب: "أنماط الراوي ووظائفه في السرد العربي القديم"»، مجلة أنساق، المجلد 3، العدد 2، 2019

https://doi.org/10.29117/Ansaq.2019.0105

© 2020، عبد اللطيف، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية وفقًا لشروط Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0). تسمح هذه الرخصة بالاستخدام غير التجاري، وينبغي نسبة العمل إلى صاحبه، مع بيان أي تعديلات عليه. كما تتيح حرية نسخ، وتوزيع، ونقل العمل بأي شكل من الأشكال، أو بأية وسيلة، ومزجه وتحويله والبناء عليه، طالما يُنسب العمل الأصلي إلى المؤلف.

من منظور علم السرد. فقد أنجز أطروحته للدكتوراه حول أخبار الطفيليين من منظور علم السرد. ودرس تحديدًا بناء الحكاية والمنظور في هذه الأخبار التي تشكل نوعًا مهمًّا ومشوقًا من المحكيات التراثية العربية.. ويُعدُّ كتاب «أنماط الراوي من هذه الزاوية استكمالاً لهذه المسيرة؛ فهو يدرس نصًّا تراثيًّا مهمًّا من ناحية، ويستكمل فحص المكونات السردية للنص التراثي، بدراسة أنماط الراوي والمروي عليه، بعد دراسة بناء الحكاية ومنظورها.

الكتاب صادر عن دار نشر جامعة قطر، في 353 صفحة، وينقسم إلى ثلاثة فصول، تحمل عناوين شديدة الإيجاز، مبنية في صيغة تشبيهات بليغة متماثلة تركيبيًّا، هي، بحسب الترتيب: «الراوي العين، الراوي الذاكرة، الراوي الصوت». يتلاقى عنوانا الفصلين الأول والثالث من زاوية اهتمامها بنمطين للراوي، وثيقي الصلة بحواس إدراك العالم داخل المتن السردي؛ أعني الرؤية والسمع على التوالي. أما الفصل الثاني، فيتناول استدعاءات الراوي للنصوص السابقة في شكل تناصّات مع كتابات سابقة عليه.

تجمع تسميات الفصول الثلاثة بين نمط الراوي ووظيفته، انسجامًا مع الجمع بينهما في عنوان الكتاب. فـ «الراوي العين» نمط خاص له وظائفه السردية المرتبطة بدوره في إنشاء العمل السردي، وتحديد منظوره. كذلك فإن «الراوي الذاكرة» نمط من الراوي، تتحدد ماهيته استنادًا إلى فعل استدعاء نصوص الماضي، وله وظائف متصلة بأغراض هذا الاستدعاء داخل متن جديد. وأخيرًا فإن «الراوي الصوت» يصوغ ماهية هذا النمط من الراوي من زاوية تلفظاته ووظائفه؛ سواء من زاوية موضوع هذه التلفُّظات، كما هو الحال في تعليقات الراوي على الحدث، أم من زاوية بلاغتها، كما هو الحال في الخصوصية البديعية لهذه التعليقات، بفضل هيمنة أساليب السجع والجناس والمقابلة والإطناب التي أولاها المؤلِّف جُلَّ اهتمامه.

يناقش المؤلِّف في الفصل الأول من الكتاب مفهومي التبئير (Focalization)، والوصف (Description)، ومستوياتهما، ومكوناتهما، والعلاقة بينهما. ويركز في تحليلاته النصية لكتاب «نسيم الصبا» على ثلاثة مكونات فرعية سردية، تنتمي إلى مقولة التبئير في علاقته بالوصف؛ هي المبئِّر (Focalizer)، ومستويات التبئير (Levels Of Focalization)، والمبأَّر (Focalized). ويقدم في سياق ذلك مقترحات مهمة، مثل التمييز بين شكلين من حضور «الراوي العين/ المبئِّر»؛ الأول أسماه المبئِّر المتخصص، وتمثله ما تراه الشخصيات داخل الرواية للعالم داخل الرواية، والثاني أسماه المبئِّر الشمولي، وتمثله رؤية ناقل الرواية (بالأحرى الراوي الخارجي) الذي ينقل المشهد السردي بما فيه من رؤية الشخصيات له. وقد فحص المؤلِّف العناصر المكونة لبنية هذين النوعين من المبئِّرين. وربط المبئِّر المتخصص بعناصر ثلاثة هي: داخلية الرصد، وتكثيف الرؤية، وتوقيع المشهد. في المقابل ربط المبئِّر الشمولي بعنصرين هما شموليّة الرصد، وتماسك المشهد الكلي.

يميز المؤلِّف بين مستويين للتبئير في «نسيم الصبا» استنادًا إلى تمييز «جيرار جينيت» بين المستويين الصفري والداخلي للتبئير. ويورد شرح «سيزا قاسم» لهذين المستويين فـ«الأول: تكون فيه العين أو الكاميرا خارج الشخصيات. فقد تنفتح العدسة فنرى المنظر الكلي وتظهر لنا بانوراما عامة، أو منظرًا شاملًا، أو قد تضيق فتركز على جانب من الصورة. والثاني يمثل الكاميرا وهي مركبة على عين شخصية من الشخصيات».. يتتبع المؤلِّف تجليات هذين المستويين في مدونة بحثه، مستكشفًا العلاقة بين نوعية المشهد السردي ومستوى التبئير المصاحب له.

يعالج الفصل الأول، كذلك، مفهوم موضوعات التبئير أو المبأَّرات، أي الشخصيات أو الأحداث التي تُقدَّم

من منظور المبئِّر.. ويميز المؤلِّف بين نوعين منها؛ مبأَّرات مباشرة؛ تتصل بالجوانب الجمالية للمبأَّرات، ومبأَّرات غير مباشرة؛ تتصل بالأهداف المستترة للمبئِّر. ويُختتم الفصل باستخلاص لوظائف الراوي العين، مميزًا بين الوظائف السردية والوظائف الأيديولوجية والرمزية.

يتناول الفصل الثاني من الكتاب نوعين من أنواع العلاقات النصيَّة في «نسيم الصبا»؛ النوع الأول من التناص هو الاقتباس، والثاني أطلق عليه المؤلِّف التناص الصوتي، أو الجدلي.. يعالج القسمان: الأول والثاني من الفصل، اقتباسات المؤلِّف القرآنية والشعرية، بهدف الإجابة عن سؤالين: «الأول: ما طرائق اشتغال هذه النوعية من النصوص المستدعاة مع النص المستدعِي لها؟ (...) والثاني: ما القيمة التي أضافتها هذه النصوص المستدعاة إلى النص المحتضِن لها؟ (إبراهيم، علاء 12).». وبعد مقدمة مطوَّلة نسبيًّا خصصها المؤلِّف للمقارنة بين المقاربتين العربية والغربية لظاهرة العلاقات النصيّة، يتتبع بالتفصيل العلاقات بين متن «نسيم الصبا» والنصوص القرآنية والشعرية التي يستدعيها فيه، لإنجاز وظائف نصية وسردية متنوعة.

يخصص الدكتور علاء إبراهيم القسم الثالث من الفصل الثاني لدراسة ما أطلق عليه «التناص الجدلي أو الصوتي». للوهلة الأولى يبدو المصطلح بحاجة إلى تحديد مفهومي، وهذا ما قدمه المؤلِّف. فهو يعرِّف هذا النوع من التناص بأنه «التفاعل بين نصين، متجاورين داخل البنية الحكائية، يتبادلان التأثير في إطار علاقة نقدية ترتهن بقدرة كل نص على استدعاء النص الآخر بشكل مضمر وظاهر، في إطار عملية مركبة تفكك بنية النص المضاد، وتعيد تشييد نصها على أنقاضه (إبراهيم علاء 238).». وفي شرح المؤلِّف للتناص الجدلي يربطه بالحجاج المضاد الذي يتجلى في استدعاء وجهات نظر أو رؤى ونقدها، في أشكال سردية وحوارية متنوعة.

ربما يحتاج مصطلح التناص الجدلي إلى مراجعة. فهناك مصطلح مزدوج مستقر في النظرية السردية المعاصرة يشير إلى الظاهرة التي استُعمل مفهوم التناص الجدلي للإشارة إليها هو مصطلح الانتقاد الظاهر أو المستتر (Hidden Or Overt Polemic)؛ الذي يشير إلى استدعاء السارد لمقولات الآخرين ونقدها، إما بشكل مباشر أو غير مباشر. وهو مفهوم طوره «ميخائيل باختين»، وطبقه على أعمال «دستوفيسكي» في كتابه الشهير «مشكلات شعرية ديستوفسكي» (Bakhtin 195)..

يفسح المؤلِّف المجال في معالجته لهذا النوع من التناص لفحص وسائل الإقناع المستعملة في الفصل السابع عشر من فصول «نسيم الصبا» (في الشيب والخضاب). ويختتم الفصل بفحص وظائف الراوي الذاكرة؛ مميِّزًا بين الوظائف المعرفية والأيديولوجية، والتواصلية، والسردية، والجمالية.

يختص الفصل الثالث بدراسة «الراوي الصوت»، ويحلل نوعين من أنواعه؛ هما الصوت المعلِّق، والصوت الفصيح. يتجلى الأول في التعليقات الصوتية التي يقوم بها الراوي، والتي حاجَّ المؤلِّف بأن لها مظهرين؛ أولهما يتصل بالتعليق على المشاهد أو الأحداث الجزئية؛ ويتصل ثانيهما بالمشاهد والأحداث الكلية. أما الصوت الفصيح فيستعمله المؤلِّف للإشارة إلى توظيف الراوي للعناصر البديعية. وربما كانت تسمية (الراوي البليغ) أدق في هذا السياق؛ إذ تقترن ظواهر البديع اللفظي والمعنوي المدروسة في هذا الجزء – مثل أساليب السجع والجناس والتوازي التركيبي والمقابلة والإطناب – بمفهوم البلاغة لا الفصاحة. وتتجلى ضرورة هذا التصويب بالنظر في قائمة الأغراض التي ينسبها الفصل لهذه الأساليب؛ وهي وظائف بلاغية بالأساس. وقد انتقد المؤلِّف الإفراط في استعمال هذه الأساليب، إلى حد إثقال النص السردي.

على خلاف الأجزاء السابقة من الكتاب، يهتم آخر أقسام الفصل الثالث بالمروي له. وهو مقولة سردية مغايرة لمقولة الراوي التي هيمنت على الكتاب واستأثرت بعنوانه. لكن تخصيص قسم، ولو صغير، من الكتاب لدراسة المروي له يبدو مبرّرًا تمامًا. فالمروي له هو وجه عملةٍ، الراوي وجهها الآخر. وهو مكون أساسي للسرد. وقد ميَّز المؤلِّف بين صورتين من صور حضوره؛ الأولى حين يكون المروي شخصية داخل المتن السردي، لها حضور صريح مباشر بالاسم والوصف وصيغ النداء، والثانية حضور ضمني حين يغيب عن الأحداث كاملاً. ويضرب المؤلِّف أمثلة على الصورتين؛ مكرّسًا شطرًا من جهده لتتبع وظائفهما وتصنيفها.

كُرّست الخاتمة لتقديم موجز لمحتوى الكتاب، يبدو شبيهًا بما تضمنته المقدمة، وإن كان أكثر تفصيلاً وتركيزًا على المساهمات التي قدّمها البحث. وفي الحقيقة، فإن المجهود الهائل الذي بذله المؤلِّف في متن كتابة كان بحاجة إلى بلورة وتأمل إضافيين في خاتمته. وكانت هناك فرصة في خاتمة الكتاب لتقديم تأملات واستخلاصات لرحلته مع مفاهيم علم السرد، في تطبيقها على هذا النص التراثي العربي. وكنت آمل تحديدًا، أن تكون الخاتمة مجالاً لفحص العلاقة بين النظرية والمتن المشتغَل عليه. تلك العلاقة التي ناقشها المؤلِّف في مفتتح كتابه، دون أن يفسح لها مكانًا لائقًا في خاتمته. علاوة على ذلك، اختتم المؤلِّف كتابه بفقرة صغيرة تضمنت توصية بمواصلة البحث في كتاب «نسيم الصبا»؛ وحبذا لو طوِّرت هذه التوصية المهمة لتتضمن اقتراحات ببحوث محددة، وتعليل لضرورتها. وحبذا لو وازتها أيضًا مقترحات بحثية تخص المفاهيم السردية وأدوات التحليل التي استعملها المؤلِّف في رحلة كتابه؛ بما يُتيح البناء على هذا العمل البحثي القيم.

تعود أهمية كتابنا هذا «أنماط الراوي ووظائفه في السرد العربي القديم» إلى أمور، منها أنه يدرس نصًا بكرًا، لم يخضع للفحص من منظور سردي قبل هذه الدراسة. كما أن المؤلِّف يطور مفاهيم سردية مهمة مثل التناص الصوتي، ويقدم تحليلات معمَّقة ودقيقة وشاملة للعناصر السردية التي يدرسها، ويولي عناية كبيرة لتحليل وظائف المكونات السردية التي يدرسها.

علاوة على ذلك، يتميز الكتاب بمعمار متقن بديع؛ فهو ينقسم إلى ثلاثة فصول، كل فصل ينقسم إلى ثلاثة أقسام. يبدأ كل قسم بمفتتح نظري حول العنصر السردي المدروس، تعقبه تحليلات وافية، ويختتم بفحص لوظائف هذا العنصر السردي. ولا يُقلل من هذا التشييد المتقن للكتاب غياب الفقرات الرابطة بين الأقسام والفصول. فقد عوَّض ربط المؤلِّف بين أجزاء الكتاب في مقدمته وخاتمته بعضًا من آثار هذا الغياب. وأخيرًا فإن لغة الكتاب تستحق إشادة حقة؛ فهي شديدة الدقة، والاقتصاد، وعلى الرغم من أن غلبة الطابع الاصطلاحي عليها، وإيثار بعض المفردات الأقل شيوعًا في الاستعمال، فإنها لغة علميَّة تتمتع بدرجة عالية من الوضوح والمباشرة.

المراجع:

أولًا: المراجع العربية

- إبراهيم، علاء. أنماط الراوي ووظائفه في السرد العربي. دار نشر جامعة قطر، 2020.
- إبراهيم، علاء. أخبار الطفيليين: دراسة في بناء الحكاية والمنظور – أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الألسن، جامعة عين شمس، 2010.
- إبراهيم، نبيلة. قصصنا الشعبي من الرومانسية إلى الواقعية. دار العودة، 1974.
- إبراهيم، علاء. شعرية الاغتراب في الخطاب الروائي المعاصر. دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، 2016.
- قاسم، سيزا. بناء الرواية – دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2004.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- Bakhtin, M. *Problems of Dostoevsky's Poetics*. University of Minnesota Press, 1984.